

خطبة بعنوان: النظام وأثره في حياة الفرد والمجتمع

بتاريخ : 26 جمادى الأولى 1440هـ - 1 فبراير 2019م

عناصر الخطبة:

العنصر الأول: أهمية النظام في الإسلام

العنصر الثاني : مظاهر النظام وصوره

العنصر الثالث: النظام في حياتنا المعاصرة بين النظرية والتطبيق

المقدمة: أما بعد:

العنصر الأول: أهمية النظام في الإسلام

عباد الله: لقد خلق الله - عز وجل - هذا الكون كله بما فيه بقدر ونظام وتدبير محكم؛ وإن نظرة متفحصة مدققة في هذا الكون، يدرك بها المرء مدى تنظيم الله جل وعلا لهذا الكون، فالله جل وعلا يقول: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا} [الفرقان: 2]، أي أن كل شيء خلقه الله بقدر، قدر يحدد حقيقته، ويحدد صفته ومقداره، وزمانه ومكانه، وهذا كله من بديع صنع الله تعالى: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ} [السجدة: 7]. يقول الطاهر بن عاشور في تفسيره: " إذا تأملت الأشياء رأيتها مصنوعة على ما ينبغي؛ فصلاصة الأرض مثلا للسير عليها، ورقة الهواء ليسهل انتشاقه للتنفس، وتوجه لهيب النار إلى فوق لأنها لو كانت مثل الماء تلتهب يمينا وشمالا لكثرت الحرائق؛ فأما الهواء فلا يقبل الاحتراق." (التحرير والتنوير)

ولو تأملنا في ملكوت الله في هذا الكون الفسيح لوجدنا الشمس والقمر والنجوم وجميع الكواكب تسير بنظام دقيق لا يصطدم أحدها بالآخر؛ وتصور ما الذي يحدث لو خرج كوكب عن مساره، أو اصطدم نجم بآخر، أو طغى بحر على يابس أو غار فجأة، تصور فساد المعاش واختلال الحياة؛ ولكن الله سيرها بنظام دقيق يدل على حكمته في هذا الكون. قال تعالى: { وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } (يس : 37 - 40).

يقول ابن كثير: " ومن الدلالة لهم على قدرته تعالى العظيمة خلق الليل والنهار، هذا بظلامه وهذا بضياءه، وجعلهما يتعاقبان، يجيء هذا فيذهب هذا، ويذهب هذا فيجيء هذا . وقوله: { لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر } : قال مجاهد: لكل منهما حد لا يعدوه ولا يقصر دونه، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا، وإذا ذهب

سلطان هذا جاء سلطان هذا. والمعنى في هذا: أنه لا فترة بين الليل والنهار، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ؛ لأنهما مسخران دائبين يتطالبان طلباً حثيثاً. "أ.هـ (تفسير ابن كثير بتصرف) .

فكل شيء في الحياة والكون مقدر ومحسوب، قال تعالى: { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } (القمر: 49) .

وقد نقلت إحدى الصحف مقابلة مع أحد العلماء المتخصصين في هذا العلم، وهو عالم مصري ومدرّس في جامعة إلينوي في أمريكا، قوله: إن كل الظواهر التي يراها الناس عشوائية ومفاجئة حتى في مجال الطب كاضطرابات عمل القلب والسكتة القلبية المفاجئة، وما يحصل من الكوارث الطبيعية، بل حتى تآرجح أسعار الأسهم في أسواقها.. كلها لها نظام؛ فليس هناك شيء في هذا الكون خارج النظام والتدبير.

وهذا النظام الكوني العام يدلنا على وجود الخالق المدبر، وصفاته وأسمائه الحسنى؛ فحينما نرى هذا الوجود ونتأمل هذا الكون يدلنا على أن هناك موجد، وأن هذا الموجد عنده هذه القدرة، بل منتهى القدرة، والحكمة والعظمة والعلم، وإلا لما أمكن أن يكون هذا الكون بهذا الشكل.

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ..... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ

أبيها المسلمون: جاء الإسلام سراجاً وهّاجاً إلى قيام الساعة ينظم للإنسان دقائق حياته، بما يصلح دنياه

وآخرته، في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فالإنسان لم يُخلق سُدى، ولم يُترك بلا هُدى، قال

الله تعالى: { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ } (المؤمنون: 115)

يقول هنري سيروي وهو أحد مفكري النصارى إن "محمداً - صلى الله عليه وسلم - لم يغرس في نفوس الأعراب

مبدأ التوحيد فقط، بل غرس فيها أيضاً المدنية والأدب والنظام".

ولو نظرنا إلى الشريعة الغراء لوجدنا أنها لم تترك شاردة ولا واردة إلا تكلمت فيها ووضعت لها القواعد والمبادئ

المنظمة لحياة البشر؛ وهذا ما لفت انتباه المشركين وأثار إعجابهم. فعن سلمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّهُ: " قيل له: قد

عَلَّمَكُم نَبِيُّكُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْحِرَاءَةِ! قَالَ: فَقَالَ: أَجَلٌ، لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ لِغَائِطٍ

أَوْ بَوْلٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِالْيَمِينِ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقْلٍ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ... " (مسلم) .

ويحضرني قصة وموقف نبيل مع أحد علمائنا الأجلاء حينما سافر إلى بلاد الغرب فسأله أحدهم: أنتم تقولون أن

كل شيء مذكور في القرآن. قال: نعم. قال: اتني دليل من القرآن أن هذا الشوال من الدقيق يصنع منه كم

رغيف من الخبز؟! قال له العالم: اتني بخباز. فأتاه الرجل بالخباز فسأله العالم. فأجابه الخباز. فقال: أنت

سألت الخباز ولم تأت دليل من القرآن؛ قال: أتيت دليل من القرآن. ألم تقرأ قوله تعالى: { فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ

إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } (النحل: 43)؛ وهذا أهل الذكر في مجاله؛ فسكت الخصم ولم يرد.

وقد ضربَ لنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَصَحَابَتُهُ أروع الأمثلة في حُسن التخطيط والتنظيم، منذ بدأت الدعوة سرّاً ثمَّ جهراً، تبع ذلك التشاور في الغزوات خاصة غزوة بدر الكبرى حين كان القائد المُنظَّم هو الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث انتهت المعركة بانتصار المسلمين.

فما أحوجنا اليوم إلى أن نتخذ من الرسول وأصحابه الكرام قدوةً في التنظيم؛ لنحرز النجاح تلو النجاح، ونحقّق آمالنا وتطلعاتنا لمستقبل مشرق بإذن الله.

أحبّتي في الله: ومما يدل على أن ديننا الحنيف دين النظام؛ أننا درسنا في كليات الدعوة وأصول الدين؛ النظم الإسلامية التي تشتمل على جميع جوانب الحياة كالنظام الاجتماعي؛ والنظام الاقتصادي؛ والنظام القضائي؛ والنظام السياسي.... إلخ وهذه النظم كلها تضع القواعد والمبادئ والأسس التي يسير عليها الأفراد في جميع مناحي الحياة؛ وفق الضوابط الشرعية المستقاة من القرآن والسنة؛ ليفوزوا بسعادة عاجل والآجل.

العنصر الثاني: مظاهر النظام وصوره

عباد الله: علمنا فيما سبق أن النظام في الإسلام يشمل جميع مجالات الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها؛ ولو طوفنا مع هذه المجالات لوجدناها شرعت بنظام دقيق يتوافق وحاجات البشرية!! فالعبادات - مثلاً - شرعت بنظام دقيق يحكم الزمان والمكان والحال والأشخاص.

فالصلاة نظام كامل، وتتألف من أجزاء وشروط وأركان وعدد ركعات وحركات محدّدة، وهي أيضاً ترتبط بالزمان، بالليل والنهار، بالفجر وطلوع الشمس وزوالها، وبمغيب الشمس ومنتصف الليل. قال تعالى: {إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا} (النساء: 103). والرسول صلى الله عليه وسلم غرس في نفوس الصحابة القدوة والنظام والترتيب بين أركان الصلاة وسننها القولية والفعلية فقال: " صلُّوا كما رأيتموني أصلي " (رواه البخاري)، فلو قدم المصلي ركناً على ركن وخالف النظام والترتيب بطلت صلاته!!

عباد الله: إن اصطفاة المصلين عند إقامة الصلاة ووقوفهم متحاذين متساوين ليدل دلالة واضحة على أهمية النظام في العبادات!! وهذه قصة وموقف جميل يؤيد هذا الكلام:

عرض بعض المسلمين على رجل أمريكي مشهداً للحرم وهو يعجّ بالمصلين والطائفين قبل إقامة الصلاة في المسجد الحرام، ثم سأله: كم من الوقت يحتاج هؤلاء لكي يكونوا في صفوف منظمة متحلقة حول الكعبة؟ فقال ساعتين إلى ثلاث ساعات، فقالوا له: إن الحرم أربعة أدوار!! فقال: إذا اثنتي عشرة ساعة. فقالوا: إنهم مختلفو اللغات وحتى اللهجات ومن بلدان شتى!! فقال الخواجة: هؤلاء لا يمكن اصطفاةهم أبداً. ثم حان وقت الصلاة.. فتقدم إمام الحرم بعد الإقامة.. وقال: استووا واعتدلوا.. سووا صفوفكم.. فوقف الجميع في صفوف متراصة حول الكعبة المشرفة في أقل من دقيقة واحدة؛ فهل بعد ذلك من نظام!!؟ .

وهذا النظام والاصطفاف أغضب اليهود وحملهم على الحسد للمسلمين؛ يقول صلى الله عليه وسلم: " إِيَّاهُمْ لَا يَحْسُدُونَ عَلَيَّ شَيْءٍ كَمَا يَحْسُدُونَ عَلَيَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ الَّتِي هَدَانَا اللَّهُ لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَى الْقِبْلَةِ الَّتِي هَدَانَا اللَّهُ لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَى قَوْلِنَا خَلْفَ الْإِمَامِ آمِينَ". (مسند أحمد وصحح إسناده أحمد شاكر) .

والصوم أيضاً نظام كامل وهو يرتبط بالزمان من طلوع الفجر إلى غروب الشمس؛ فعن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَا هُنَا؛ وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَا هُنَا؛ وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ". (متفق عليه). ومما يدل على النظام في الصوم أن الشارع الحكيم حرم الجماع في نهار رمضان وغلظ فيه العقوبة؛ مع أنه حلال في ليله: { أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ } (البقرة: 187).

والحج نظام وتنظيم كامل يرتبط بالزمان، فالحج أشهر معلومات، ومناسك وشعائر، ينتقل العباد من بعضها لبعض في نظام لا يخرجون عنه ولا يتجاوزونه؛ وفي الحج علمنا النبي - صلى الله عليه وسلم - النظام والترتيب والإتباع حيث قال: "خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ" (رواه مسلم والنسائي).

وقيل أن أحد الصحفيين العرب عند باب المسجد الحرام رأى الملك الراحل فيصل بن عبدالعزيز - يرحمه الله - خارجاً فأراد أن يشكره على حسن تنظيم هذه الوفود أثناء موسم الحج وفي كل الشعائر، فقاطعه الملك قائلاً: يا أخي لا تشكرني ولا تشكر أحداً.. بل اشكر الله وحده، فهذه الجموع البشرية الهائلة لا يمكن لبشر أن ينظم مسيرتها، ولكنها حكمة الله وحده القادرة على ذلك.

وفي مجال الجهاد نجد أننا مأمورون بالنظام حتى في أشد حالات الخوف، وهو وقت الحرب، لم يقبل الإسلام فيه حياة الفوضى، بل أمر بتنظيم الصفوف والتخطيط والترتيب، قال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُورٌ } (الصف: 4)، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يعدل صفوف المقاتلين بنفسه يوم بدر، ووضع لهم نظاماً معيناً لكيفية أداء الصلاة جماعةً في أرض المعركة؛ فشرعت صلاة الخوف منظمةً بكيفيات متعددة كما ذكرها المفسرون.

وفي مجال الحياة الاجتماعية والأسرية نظم الإسلام السلوك والمعاملات، وسنّ القوانين والتشريعات في البيع والشراء والميراث؛ والزواج والطلاق والعلاقة بين الأزواج، وعلاقة المسلم بأخيه المسلم، وعلاقته بغير المسلم؛ وحث الإسلام على التزام الأدب واحترام القوانين والمحافظة على الذوق العام. ونحن نجد أن الله - عز وجل - بعد ذكر هذه التشريعات يعقبها بالوعيد والتهديد لمن يخالف هذا النظام وتلك القوانين والتشريعات (تلك حدود الله)؛ (وتلك حدود الله)؛ كما في سور البقرة والنساء والمجادلة والطلاق وغيرها.

وفي باب الآداب الاجتماعية وضع الشارع الحكيم الأحكام والضوابط التي تنظم ذلك كآداب الطعام والشراب واللباس وغيرها؛ فعن عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ: كُنْتُ فِي حَجْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّخْفَةِ فَقَالَ لِي: " يَا غُلَامُ سَمِّ اللَّهَ؛ وَكُلْ بِيَمِينِكَ؛ وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ". (متفق عليه).

كما أمرنا بأدب الاستئذان حتى على الأم؛ فعن عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَسْتَأْذِنُ عَلَى أُمِّي؟ فَقَالَ: نَعَمْ. قَالَ الرَّجُلُ: إِنِّي مَعَهَا فِي الْبَيْتِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنِّي خَادِمُهَا. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا أَتُحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عُريَانَةً؟! قَالَ: لَا. قَالَ: فَاسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا. (مالك والبيهقي مرسلًا).

وهكذا - أيها المسلمون - يسير الكون في جميع مجالاته طبقاً لنظام دقيق لا توجد فيه فوضى أو عبثية أو تضارب واختلاف، لأن الذي وضعه وأتقنه هو الخالق - جلّ في علاه - .

العنصر الثالث: النظام في حياتنا المعاصرة بين النظرية والتطبيق

عباد الله: إن من ينظر في حياتنا المعاصرة يجد انفصلاً وانفصاماً كبيراً بين النظرية والتطبيق في قيمة النظام؛ فكما عرفنا في العنصرين السابقين أن الإسلام وضع قواعد تشريعية منظمة لكل مجالات الحياة؛ ولكن معظم الأفراد - إلا من رحم الله - لا يتبعون هذه النظم ولا يطبقونها على أرض الواقع؛ فانظر - مثلاً - إلى حال الناس في النزاحم والتدافع في الأسواق والمؤسسات الحكومية ومكاتب البريد والتموين؛ وعلى المخابز والأفران؛ وعدم الالتزام بقواعد المرور والمواصلات؛ وغيرها من أماكن الخدمات المختلفة في الدولة!! وللأسف الشديد تجد الغربيين - مع عدم إسلامهم - يتبعون هذه النظم ويطبقونها في حياتهم العملية.

أحبتي في الله: إنني أتألم كثيراً حينما أجلس مع زملائي وأصدقائي الذين سافروا إلى بلاد أوروبا ويحكون لي ما رأوا هناك من النظام والترتيب في جميع شؤون الحياة !!!

وهذا يذكرني بالشيخ محمد عبده - رحمه الله - عندما زار أوروبا فذكر قولته المشهورة والتي لا يزال يرددها الكثير من المسلمين إلى يومنا هذا : "رأيت في أوروبا إسلاماً بلا مسلمين ؛ وفي بلدنا مسلمين بلا إسلام".

فعلى كل أسرة أن تربي أفرادها على النظام ، ولا بدّ أن يُربّي الطفل منذُ نعومة أظفاره عليه، وأن ينشأ على حبّه واحترامه، ويطّبع على التعامل معه بإيجابية ببناء، وشعور واعٍ بالمسؤولية؛ لذا فإنّ أي سلوكٍ إيجابيّ أو سلبيّ من الوالدين سينعكسُ بدوره على الطفل؛ فإمّا أن ينشأ منظماً يعيش حياته بطريقة جميلة مميّزة، أو تعمّ الفوضى حياته فتصبح بلا قيمة ولا هدف !!

لذلك نصحّ حكيمٌ أبناءه فقال: يا بَنِيَّ - لقد علّمتني الحياة قيمة النظام - وهو شعارٌ نفتخرُ به لأنّه أساس حياتنا، وقد لمستُ خلال حياتي الطويلة أثره الإيجابيّ علينا كأفرادٍ وعلى مجتمعاتنا .

أبنائي .. لقد آلمني في حياتي أولئك الأشخاص الذين آثروا الفوضى ولم يعرفوا أهمية النظام، فكان لما فعلوا الأثر السيء على المجتمع، وقد عكسوا عبر سلوكياتهم السيئة تأخرهم عن مواكبة الحداثة والتقدم.

أبنائي النظام أخلاق مَنْ تَمَسَّكَ بِهِ سَلَمَ وَغَنِمَ، ومن تركه دفع الثمنَ غالباً ولن يعرف طريقاً للسعادة في الحياة.

لذا فإنَّ النظام كالشجرة المثمرة التي تمدنا بطعم الحياة .. وبدونها لا جمال ولا نجاح !!

وقد سُئِلَ عالمٌ عن قصة نجاحه فقال: " لقد اتخذتُ من النظام شعاراً لي في حياتي .. منذ كنتُ طفلاً صغيراً،

فكنتُ أحترمُ مواعيد النوم والاستيقاظ، والصلاة، والطعام والشراب، كما كنتُ أحترمُ مواعيد المدرسة وأنظمتها،

وقوانين جميع المؤسسات التي أرتادها !!

كانت للوقت عندي قيمة كبيرة، فلا أدعه يمضي دون فائدة، وفي نهاية كلِّ يوم كنتُ أحاسبُ نفسي على كيفية

قضائه، بالإضافة إلى ذلك كان للعطلة الصيفية عندي أهمية كبرى في حياتي، فكنتُ أنظّم وقتي، فللمطالعة

نصيبٌ، وللرياضة نصيبٌ، وللترفيه الهادف حصّة، أما عن تجاربي فكنتُ أقوم ببعضها خاصة ما يحتاج إلى فراغٍ

ووقتٍ وجهد .. هذا موجز حياتي .. ولو أنّ كلَّ إنسان عاش حياته مُنظّماً، واستثمر الفرص بما يعود عليه وعلى

مجتمعه بالنفع والفائدة لعرف معنى الحياة وقيمتها .. وقدم وأعطى الكثير !!!

أيها المسلمون: والله الذي لا إله غيره؛ لو اتبعنا النظام في حياتنا وعباداتنا ومعاملاتنا وفي جميع شؤون حياتنا؛

لعشنا عيشة كريمة آمنة مطمئنة؛ في رغدٍ ورخاءٍ؛ ولكن: { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ } .(هود: 101)؛

{ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } (النحل: 118) .

نسأل الله أن يرد المسلمين إلى دينه مرداً جميلاً ؛ وأن يرزقنا النظام في حياتنا العملية ؛؛؛؛

الدعاء..... وأقم الصلاة.....

كتبه : خادم الدعوة الإسلامية

د / خالد بدير بدوي